# لا تقطعوا الشجرة!

بقلم: جمال بنوره - بيت ساحور

خرج الناس من بيوتهم على صراخ يملأ الحارة... كان شيخ طاعن في السن يحمل عصاه، ويهزها امام جمع من العمال، وهو يصرخ:

- لا تقطعوا الشجرة... لن اسمح لكم.. من اعطاكم امرا بتقطيع شجر الناس؟ هل تظنون ان الرزق داشر... ليس له اصحاب..!؟

◇

وقف العمال مبهوتين.. لا يدرون ماذا يفعلون. وهمم الشيخ بعصاه على احد العمال، فلمسه بضربة واهنة على كتفه، وبقية العمال يحجزون بينهما. صرخ به العامل، وهو يتصبب عرقاً، والفأس في يده:

- لا تثر مكذا...! ليس لك شأن معي.. هل تظنني لا استطيع الدفاع عن نفسي.. انا احترمك لكبر سنك.

- هل اسكت لك، وانت تقطع شجرتي..؟

قال العامل في مسكنة - انا عبد مأمور..

وتدخل عامل اخر محاولا تهدئة الشيخ...

- نحن ليس لنا دخل.. نحن نعمل باجرنا.. عليك مراجعة البلدية... واطلق العجوز شتيمة عليه وعلى البلدية، فرد عليه العامل في استكانة:

- الله يسامحك يا اختيار.. انت برضه مثل والدي...

اقبل المراقب مسرعا نحو العجوز، وهو يقول بلهجة متوددة:

- روق يا اختيار... لا تزعل نفسك.. الزعل يضر بصحتك...!

- انت خايف على صحتي..! لا تقطع الشجرة اذن... اقتلني اولا..!

ماديقترب منه قائلا: - دعنا نتفاهم..! انه مخطط التنظيم يا اختيار.. لا بد ان يمر الشارع من هنا...!

صاح الشيخ بغير اقتناع وهو يشير بعصاه:

- وهل كان يجب ان يمر الشارع من هنا... لكي تقطعوا شجري؟!

- انها شجرة زيتون واحدة فقط. اعترضت الشارع.. فلا بد من قطعها ... والله منعم ومفضل... لديك شجر كثير غيرها.

- حتى لو كان لك مئة ابن... هل يهون عليك ان تفقد احدهم؟!

قال المراقب مسايراً: - لا .. طبعا..

- هذه الشجرة مثل واحد من ابنائي.. لحس انكم تقطعون من لحمي وانتم تضربونها بالفأس...لا ..... لن اتركم تقتلعونها وانا اقف متفرجا..!

شعر انه لا يستطيع مجابهة العجوز بمنطقه، فعاد يتذرع بحجة اخرى: - ولكن التنظيم يتطلب ان يكون الشارع مستقيما...!

رد الشيخ ساخرا: - وما الضرر لو كان الشارع ملتويا... جميع الناس يسيرون في الطرق الملتوية..! ثم انه لن يعيقنا عن السير...!!

- لا نستطيع ... اننا نسير حسب خارطة التنظيم..لن يسمح المهندس بذلك.

- وماذا يكون هذا المهندس؟! ليس على خاطره.....!

قال المراقب يائسا: - اننا لا نستطيع التفاهم معك...

ثم مضيفا: - على كل حال.. انا لا يعنيني شيء من هذا.. الان يحضر رئيس البلدية، وتفاهم معه..؟

لذ احد العمال يضحك ساخرا من العجوز وهو يقول:

- هل الشجرة تستاهل كل هذا؟؟

فصاح به العجوز غاضبا: - أن لا تحس بما تجني يداك! تضحك ايضا؟ ... تظنني خرفاً..! انا عقل اكثر منك... لانك لا تحس بقربك الى هذه الارض... ليس الشجرة وحدها خرجت من رحم هذه الارض نحن ايضا منها... واطعمتنا، كما ولدت هذه الشجرة... لذلك احرص عليها.. واريدها ان تبقى....

قال احدهم: يمكنك ان تنقلها الى مكان اخر.

- كيف يمكنك ان تعيش اذا اخرجت من الارض التي تربيت عليها... انك مثل هذه الشجرة تماماً.. اذا اقتلعتها من الارض التي عاشت عليها... سوف تموت... وانا لا اريدها ان تموت...

قال احدهم هازئا بصوت خفيض: - هذا الشيخ ..... حكيم..

صرخ به العجوز، وهو يقترب منه، ويهز يده النحيله المعروقة في وجهه: - تظنني لم اسمع..؟ انت تتمسخر علي...! سأقول لك شيئا تريد ان تقتلع هذه الشجرة.... ولكنك لن تستطيع... لان جذورها تمتد عميقا في باطن الارض... انك لن تصل الى نهاية ..... لان ما يربطها بالارض اقوى من فأسك..... ستبقى جذورها في اعماق هذه الارض رغما عنك... هل فهمت!؟

□□□□□□

قدم الرئيس يخطر بين اعوانه وموظفيه... قال متسائلا:

- ماذا يجري هنا؟؟

قال المراقب مخاطبا الشيخ:

- ها هو الرئيس... تفاهم معه... وخلصنا...

اقبل الشيخ نحو الرئيس صائحا بلهجة تهديد:

- اسمع يا ريس.. اختصر الشر انت وعمالك... وابعدوا عن شجرتي... هذه الشجرة... لا يمكن ان تقطع...(ثم بحدة اكثر) انت لا يمكن ان تسمح بذلك...!!

قال الرئيس ملاطفا في خبث: - ولكن انا لم اسمح بشيء...!

قال العجوز وقد انبسطت اساريره: - ها.... انا قلت دائما انك ابن حلال...!

اردف الرئيس متنصلا في لهجة تتسم بالبرود:

- ولكن ما نفعله .... مقرر في خارطة التنظيم... قبل ان انتخب رئيسا ... نظر اليه العجوز مندهشا وقد خاب ظنه ولكنه ظل يتمسك بالامل... ثم طامن من لهجته ، وهو يقول:

- حسنا.. تستطيع ان تغير... لماذا انتخبناك اذن؟! نحن نعرف انك انسان نابه... لهذا انتخبناك... تستطيع ان تغير ما تشاء...!!

معترضا في رقة - لا .....

ليس الامر بهذه السهولة، يا استبد الغضب بالعجوز من جديد...

- لا ... ورأس ابي واجدادي... هذا الكلام لن يمشي...!

الرئيس متمسكا بالصبر وطول الاناة:

- يا شيخ... انت تعطل اعمال البلدية... لا يحق لك... ثم ما اهمية شجرة....! سيرتفع ثمن ارضك مع مرور الشارع بجانبها...

- هذه الارض ثمينة بدون ان تفتح عليها شوارع.. ثم انها ليست للبيع يا حضرة الرئيس.... حتى لو صارت تسوى ملايين... انا لا ابيع ما اورثني اجدادي...!

- حسنا.. هناك مصلحة المواطنين ايضا... انهم يريدون هذا الشارع... انه يسهل وصول الماء والكهرباء.. انه يجعل الحياة اسهل للجميع...

- انا لا اعترض على الشارع.. انا اعترض على تقطيع الشجر.

- سندفع لك التعويض المناسب..

- انا لا اريد تعويضا... هل تعتقد ان اي شيء يعوضني عن شجرتي... انت لا تعرف ما تعني هذه الشجرة بالنسبة لي....؟

الرئيس متسائلا في دهشة:

- ماذا؟

- لا تتظاهر بانك لا تعرف... هذه الشجرة المباركة... لقد زرعها اجدادنا الاولون قبل مئات السنين... كيف تريدني ان افرط بها... انها علامة وجودنا على هذه الارض... لماذا نضيع الاثر الصالح لاجدادنا؟ كيف تسمحون بذلك... انتم، ايها المثقفون!؟

همس احد الاعوان للرئيس:

- دعك من هذا العجوز.... انه يبيع حكي....لماذا. لا نخبر الشرطة، ونوقفه عند حده...؟

قال العجوز محتدا: - انا لم افقد سمعي بعد.....!

ثم ملتفتا الى الرئيس: - انت ايها الرئيس... لا تجعل هؤلاء الناس، يؤثرون عليك... انا اعرفك منذ ولدتك امك... لقد اكلنا قطينا حلاوة مجيئك... كنت دائما ولداً صالحا... وكنت اعرف انك ستصبح شيئا مهما في بلدنا... كان الذكاء يلوح على وجهك... انت لا تزال كما كنت... طيبا وابن حلال.. لا تخيب ظني فيك... انت تسمع كلمة من هم اكبر منك سناً... انا اعرفك دائما هكذا... انت لن تسمح بأن نضيع اثر الاجداد...!!

اصاب الرئيس شيء من الارتباك، وهو يحاول جاهدا ان يتظاهر بالهدوء، وقد ادرك ان العجوز لن يتراجع عن موقفه بسهولة، فقال بلهجة تنم عن الاستسلام:

- حسنا... سنرى ما يمكن عمله...

ابتسامة باهتة، مما شجع العجوز على الاستمرار في حديثه بحماس اكثر من السابق:

- هل تعلم ايها الرئيس... هذه الشجرة... لقد اعتنيت بها مثلما اعتني بولد من ابنائي... اولادي عندما يكبرون لا يعودون بحاجة الي... اما هذه الشجرة فهي دائما بحاجة الي... انني لو تخليت عنها... سوف تجف سوف تموت .... طول عمري كنت اعتني بها... كنت انني عليها ليصلها الماء... واشذب اغصانها الشائكة... تربت الدماميل في يدي من الحرث والري والزراعة والتشذيب.. هي وجميع شجر هذه الارض... اكلت من لحم يدي.... من عرقي... من دمي....

في ذلك الوقت كنت لا ازال شابا... وكانت بلدنا قرية صغيرة... خربة ... اليوم صارت مدينة بفضل ابنائها المتعلمين... لكن نحن لم نعلمكم حتى تقطعوا الشجر، وتهملوا الارض.. وتنسوا ان هذه الارض... هي التي اطعمتكم وربتكم...!

قال الرئيس مقاطعا: - حسنا ايها الشيخ... لقد اطلت علينا... ماذا بامكاننا ان نفعل!!

قال الشيخ في اصرار: - يجب ان تحافظ عليها... ان جذورها هي جذورنا في هذه الارض... انك لو قطعت بينها وبين جذورها فسوف تموت.... انت ايضا اذا قطع بينك وبين جذورك سوف تموت... لذلك يجب ان تعيش هذه الشجرة.... كما يجب ان تعيش انت.....

بينما الرئيس يهز راسه استطرد الشيخ في شبه توسل: - انا املي فيك لم يخب ابدا... اخبر عمالك ان يتوقفوا عن العمل.... انظر كيف انسلخت قشورها... انها تحتاج الى عناية فائقة حتى نغطي جذورها من جديد... سوف اعتني بها حتى اجعلها تعيش....

قال الرئيس في تعجب: - ولكن... نحن لم نقرر ان نبقي على الشجرة... هذا الامر يتطلب تغييرا في مخطط التنظيم... انا لا استطيع ذلك...!

العجوز مندهشا: - ها...لم ينفع الحكي معك اذن... هل ستقطعها؟!... انا لن اسمح لك على اي حال... مهما كلف ذلك....

- انت لا تستطيع ان تقف امام السلطة والقانون!!

- انا لا اعترف بقوانينك التي ستحرمني من شجرتي....

- لا بهم ان لا تعترف بها.... ولكن هي التي ستنفذ اخيرا....

بيأس: - ولكن ما المانع ان تفتحوا الشارع، وتبقوا على الشجرة ايضا... لينحرف الشارع قليلا .. او لتبق الشجرة في وسط الشارع... ما الضرر في ذلك...؟ انها ستلقي بظلالها على الشارع... وهي لن تعيق السير ايضا...

- هل تمزح يا اختيار؟!

- انا لا افعل ذلك من اجل ثمرها... انا لا اريده... ولكن لا تقطعوها...!

- مستحيل...!!

قال اخيرا وهو يهز راسه متفكرا: - هكذا اذن....!

ثم اردف بعد قليل: - اسمع ايها الرئيس... لا تدعنا نلجأ للمحاكم... انا اعرف انها لن تنصفني... انتم تملكون القوة والسلطة... تستطيعون ان تفعلوا ما تشاؤون... انا اعلم ذلك... ولكن رغم ذلك... لن اسمح لكم... انني اضحي بهذه الشجرة... ولكن لا... لتقطع .... انني اتبرع بزيتها للمقامات المقدسة... انني انذرها منذ هذه اللحظة لتكون وقفا للمقامات المقدسة... اعاهدك على ذلك ايها الرئيس... وهذه الوجوه تشهد علي....!!

انتهت

## أخبار ثقافية

● يجري في بغداد حاليا تصوير اول انتاج تقوم به مؤسسة السينما العراقية، وهو فيلم روائي طويل للاطفال، عنوانه «الابطال» كتب السيناريو جاسم المطيري، وزهير خزعل، ويخرجه صاحب حداد. والفيلم يتناول قضايا تربوية وتعليمية «تساعد في بناء شخصية متماسكة ومتينة للاطفال». وتستلهم قصة الفيلم حكايات من التراث الشعبي.

● عن دار الآداب صدرت مجموعة قصص قصيرة لزكريا تامر بعنوان «النمور في اليوم العاشر» وهو في ست عشرة قصة.

● ومن اخبار العراق الثقافية ان جبرا ابراهيم جبرا سيصدر قريبا مجموعة شعرية بعنوان «لوعة الشمس». وكذلك رواية لم يعلن عن اسمها بعد. هذا وكتب جبرا ابراهيم جبرا في السنة الماضية سيناريو لفيلم وثائقي عن «الفن السومري» اخرجه توفيق صالح حنا، وحاز على الجائزة الاولى للافلام الوثائقية للعام ١٩٧٧.

ويعمل جبرا حاليا على وضع سيناريو لفيلم وثائقي عن «المساجد الاسلامية في القرون الاولى للاسلام». وفي ذلك يقول: «كنت اصبح خبيرا في معمارية المساجد لكثرة ما قرأت عنها».

ولهذه المناسبة تذكر ان انطوان غندور سافر منذ مدة الى بغداد، ليصور فيلما لشركة التلفزيون اللبنانية يستمد موضوعه من رواية جبرا ابراهيم جبرا «صيادون في شارع ضيق».

● تقدم عدد كبير من الكتاب والمثقفين وطلاب الجامعات في دار السلام - تنزانيا بعريضة الى حكومة كينيا يطالبون فيها بالافراج عن الكاتب الروائي الافريقي (نجوجي ثيونجو) كما وقع هذه العريضة عدد من اساتذة جامعة دار السلام، واكد الموقعون في عريضتهم، ان كتابات الروائي ثيونجو لعبت دورا هاما في اليقظة الافريقية، وطالبوا الحكومة الكينية الافراج السريع عنه او تقديمه الى المحاكمة، ومما يذكر ان الحكومة القت القبض على الكاتب في ديسمبر الماضي بعد ان قدمت مسرحيته (ساتزوج متكرا) والتي عادت الحكومة فمنعتها بعد ان سمحت بعرضها قبل ذلك. وتزهر كتابات هذا الروائي بالنقد للنظام الكينيني وخصوصا روايته المسماة (ازهار الدم).

● صدر في باريس كتابان جديدان عن كافكا.

الاول كتاب مصور بعنوان "رسائل الى اوتالا والعائلة" وهو مجموعة من الرسائل التي كان بكتبها كافكا الى شقيقته اوتالا. والكتاب الثاني بعنوان "الحادث مع كافكا" اعده غوستاف جانوش الذي كان صديقا لكافكا في السنوات الاخيرة من حياته حتى توفي عام ١٩٢٤.

● يعرض في باريس الان الفلم السوفيتي "الفجر يصعدون الى السماء" الذي اخرجه اميل لوشانر عن قصة لمكسيم غوركي تتحدث عن شغب في طرق الدوريان والنلاشي في اطار فولكلوري عن الفجر في روسيا عام ١٩٠٠.